ساڤونارولا
(رمز العصر الوسيط)

سأحدثك عن عجيبة عصر الرينسانس : چيرولامو ساڤونارولا . ولد فى فبراير ١٤٥٢ ، ثم رفض أن يتعلم مهنة أبيه الطبيب . وهو لا يأنس إلى عصره فى بهجته وتحرره من رباط العصر الوسيط .

كان أبوه طبيب البلاط فى إمارة إستيه ومن أصل نبيل . نشأ ابنه كارهًا لهذا البلاط ، أفراحه ومواكبه وافتتاحه للعصر الجديد بحفلاته ، البلاط المؤتنس بالشعراء ، والملاعبين ، والمضحكين ذوى الشهرة الواسعة فى زمانهم ، والفرسان والأتباع ، والعلماء وملكات الجمال . قصر إمارة « إستيه » مقام فى أساساته سجون بزنزانات يقضى فيها المحكوم عليهم بالمؤبد أن يعيشوا رهن السلاسل . . . حتى الممات .

چيرولامو يأنس إلى فلسفة أرسطو ، ويعيش مؤلفات توماسى الإكوينى ، كارهًا « الهيومانية » الجديدة بكل معانيها . لا يرتاح إلا إلى التربية الدينية على أيدى إسكولائيين من أصائل العصر الوسيط . فإذا قرض الشعر فى العشرين من عمره ، كان ينعى فيه على زمانه ، الخراب والتخريب ، الفوضى التى تشمل الدنيا ، تاهت فيها

الفضائل أو ماتت « إذا رفعت البصر إلى خارج الدار لا أرى سوى الظلام يلتهم العتامة ، والناس فى نشوة العقار لا يخجلون من موبقاتهم » كره البابوية ، وطغيان الاستبداد . فلم ير غير الدير يهرب إليه من العالم الخارجى ، ملتمسًا الراحة من العذاب الذى يشتمل الخاطئين ، يتخفى فى إسكيم الرهبنة ، وقد انتهى به الأمر إلى هجر والديه ، ودخول دير الدمنيكان الذى يحمل اسم « سان ماركو » أسوة بأستاذه الروحى توماسى الإكوينى ؛ كتب إلى أبيه معتذرًا يقول بأنه تارك دنيا تُهان فيها الفضائل ، وتحترم الرذائل ، لم يستقر ولا عرف الهدوء إلا بفلورنسا ، منفعلا بجمال مبانيها الدينية ، وكان إحساسه بأنها الحاضرة التى سوف يحول فيها ويصول ، يخطب فى أهلها ، بعد استقراره فى دير سان ماركو ، مستسلمًا للهدوء أسير مكتبة الدير ، والفريسكات التى زين بها الدير راهب اسمه فرا انجيليكو . ثم خرج إلى دور العبادة يخطب فى الناس بأسلوب تنقصه الخبرة ، ويدفعه إلى ارتجال الخطب لإيقاظ ضمير الشعب التائه فى حياة كلها عسف وجور . ونمت تجربته الخطابية باندفاعه العاطفى . فتوقدت خطبه شعلة لا تنطفئ باسترساله ، إذ تتدافع لعناته ، وتصويره للحالة التى عليها هؤلاء الناس ، وقد نزلوا إلى حضيض المهانة والذل . قال من كان يسجل خطبه :

« وهنا غلبنى البكاء ، والناس فى نواح ، فتوقفت عن الكتابة وسط جمهور لا يكفكف دموعه » .

قال الهيومانى الكبير بيكرديلا ميراندولا ، علامة الجيل : « كان

مجرد صوت ساڤونارولا يملأ أرجاء الكنيسة الحاشدة ، وكأنه ضربات القدر تثير فى السامعين قشعريرة تنفذ إلى نخاع العظام ، وتَشِدّ شعر الرءوس . فإذا خرج الجمهور إلى الطريق العام ، كان سيرهم لانبس فيه . وكأنهم أشباح ذاتهم . وترديد الخطيب لكلمة « الندم » كأنه صوت الرب فى عُلاه ، أى نعم ! « الندم ، فإن سيفًا مصلتًا فوق رءوسكم ، هو الممثل لذنوب الكنسية ، وأهلها الذين زحموا الدنيا بالزّنى ، وارتكاب بقية المعاصى ، والحكام الظلمة مجرمون يجيدون العسف ، والدوس على الأرواح ، أرواحكم أنتم أيها الآباء والأمهات والفتية والفتيات » ، والأطفال يلثغون بهجر القول ، وكأن الخطيب أمام مرآة تعكس خطاياهم ، وتكشف عن أحوالهم النفسية ، تحيط بها ألسنة اللَّهَب ، والراهب يكشف لهم عن مستقبل الأمة خرابا ، وعن بأسائهم القادمة . وستقتحم الأجناد الأجنبية بلادهم .

ما أشبه هذه التنبؤات بمرائى « أرميا » وتهديدات « حزقيال » ، أو يوحنا المعمدان ، يصرخ بين الأجيال المثقلة بالخطيئة : « التوبة والندم ! فقد حضرتكم مملكة السماء » . أشار چيرولامو ساڤونارولا فى مذكرة عن خطبة ألقاها فى خلال العام ، أكدت على ثلاث نقاط : « يجب أن تتجدد الكنيسة فى زماننا . وسيسبق هذا الإصلاح مصائب تنزل بإيطاليا ، معادلة للعقوبات ، وإن كل هذا سيحدث عن قريب » .

والعجيب أن الراهب فى كلامه كان صادقَ الإحساس بما سيحل

ببلاده ، فلا تعجب أن يوصف سافونارولا بنبى عصر الرينسانس . ولكنه كان فى الحقيقة ملاك الهدم لا البناء ، فلا هو سان دومنك ، مؤسس رهبنة الدومنكان ، ولا هو سان فرانسوا الأسيزى مؤسس الفرنسيسكان ، ولا هو إنياس دى لوايولا منشىء الجزويت . إنما هو تلميذ « العهد القديم » (من الكتاب المقدس) تذاكر فيه لسان ملاخى وأرميا .

وتعجب مع هذا أن قد بدأ غزو الشمال الإيطالى بعد ثلاث سنوات من خطبته الأولى فى كنيسة دير سان ماركو .

اقتحم شارل الثامن ملك فرنسا أرض إيطاليا بجيش عرمرم . وصدقت نبوءته فى الإصلاح الذى سوف يبدأ على يد الراهب الجرمانى مارتن لوثر بلا خطب ، وبلا صراع . فمنذ اللحظة الأولى — ودون أية فكرة بأنه ثائر على روما — التى علق مارتن طريحاته ، وقضاياه الخمسة والتسعين ، على بوابة كنيسة ڤيتنبرج فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧ ، انتشرت القطيعة ، وبسرعة النار فى الهشيم ، بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، أو ما وصف بالإصلاح (ريڤورم) ، ولم تمض أربع سنوات حتى غدا لوثر أشهر رجل فى بلاد الجرمان ، وقد أُلقِىَ عليه « الحرم » من بابا روما ، متمردًا مطرودًا من حظيرة الإمبراطورية الألمانية ، وكل هذا يحل دمه ، لولا أن حماه وأخفاه فى قلعة « الفارتبورج » فريديرك ملك سكسونيا . وكان لوثر — قبل إلقاء الحرم — قد وضع سنة ١٥٢٠ أربعة من أعماله التى أصبحت أساسًا للاهوت « الإصلاح » .

ومن أحلام ساڤونارولا ، وهو يفكر بشئون روما ، أن شاهد فيما يرى النائم صليبًا أسود فوق عاصمة الكثلكة ، بلغ عنان السماء ، مكتوبًا فوقه « صوت غضب الرب » .

قال فى خطبته : يا إيطاليا ! ، ياروما ! سوف أسلمكم لناس جاءوا ليمحوكم من بين الشعوب ، سيهجمون عليكم كالأسود ، ويجىء مع الحرب الوباء ، وسيبلغ ازدحام المساكن بالموتى ، أن ينادى اللحّادون فى الطرقات « هل من ميت ؟ هل من متوفى ؟ » . . . أيا روما ! أكرر ياروما ندائى لكم بالندم ، والتماس المغفرة . الندم ياڤنيسيا ، والندم ياميلانو ! .

ساح ساڤونارولا فى المدن الإيطالية ينادى بالويل والثبور ، ويتنبأ باقتراب ساعة الندم . وفى عام ١٤٩٠ جاءه القدر بما لم يتنبأ به ، وهو أن يصبح حاكمًا على فلورنسا . وكان الأمير لورنزودى ميدتشى هو الذى استدعاه إلى فلورنسا فى أغسطس ١٤٩٠ .

وارتقى الراهب الدومنكانى منبر كنيسة دير سان ماركو ، وجاءت خطبته تعليقًا على الحلم الرهيب ليوحنا . وحاز الخطاب الإعجاب العام ، فاستدعى إلى « الدومو » ، كنيسة فلورنسا الكاتدرائية ليقوم فيها خطيبًا دائمًا . وكان الأمير قد عينه رئيسًا لدير سان ماركو ، مدرسة حداثته . فقام بإجراء الإصلاحات فى الأديرة الدومنيكية ببلاد تومكانيا .

كان المنتظر والمفروض أن يتوجه رئيس دير سان ماركو إلى قصر

الإمارة بمناسبة تعيينه رئيسا للدير . ولكن الراهب العنيد لم يعن بأداء هذه الزيارة الرسمية والتقليدية . وكان تعليق الأمير الهادئ ، مبتسمًا : « أرأيتم ؟ هذا غريب عن المدينة ، جاء إلى بيتى ، ولم يتنازل بزيارتى » . ونسى الأمير أن ساڤونارولا لا يعتبر ديرسان ماركو بيت الرب ، لا بيت الأمير ، وتوالى عدم خضوع الراهب الرهيب لسلطان الأمير ، مع أن لورنزو دى مديتشى لم يتوان عن حضور صلواته ، ولم يتأخر فى أن يضع فى صندوق الدير (النذور) ذهبًا كثيرًا . فكان ساڤونارولا يوزعه على فقراء المدينة ، بدلا من وضعه فى خدمة الدير وكنيسته .

ولم يكتف چيرولامو ساڤونا رولا باحتواء أمير فلورنسا ، بل شرع بالتهجم على البابا فيما سيجىء . إنما كنت أود أن أبدأ هذا الفصل بالواقعة الأخيرة بين الأمير لورنزو وساڤونارولا . حين حضرت الأمير الوفاة ، استدعى الراهب الثائر – لأن لورنزو كان مدركًا لقدرة الراهب فى شخصيته وبلاغته ، وإقبال الناس عليه – ليعترف إليه بخطاياه ، طلابًا للغفران . وكان تعليق الراهب على الدعوة : « ثلاثة أعمال مطلوبة منك : **الإيمان برحمة الرب ، إعادة ما كسبته فى حياتك بما لا حق لك فيه ، وأن تأمر بإعادة الحريات إلى فلورنسا .** وفى لورنزو بالمطلب الأول والثانى . أما المطلب الثالث فقد أدار له وجهه إلى الحائط فى صمت كامل . وغادر ساڤونارولا **القصر دون أن يقدم الغفران لإنسان على باب الأبد !** .

كان ساڤونا رولا يعتبر لورنزو المديتشى طاغيًا ، فاسدًا ، عدوًّ

الدين ، فى حين كان لورنزو – على الرغم من استشعاره خطر هذا الراهب – يقدر صفاته كمعارض وخصم . وبعد وفاة أمير فلورنسا أصبح رئيس دير سان ماركو مجاهدًا فى سبيل تحرير المدينة ، بإعطاء الشعب حقوقه . وظل فى جهاده الدينى والسياسى والاجتماعى حتى نهاية حياته .

تولى الإمارة پييرو المديتشى ، وكان الوريث الخائب . سلم حصون فلورنسا للملك الفرنسى شارل الثامن ، وبذلك صدقت واحدة من تنبؤات رئيس دير سان ماركو .

وفى عام ١٤٩٥ نفيت أسرة المديتشى ، وغادر شارل الثامن فلورنسا إلى نابولى . وبذلك تولى الراهب الرئاسة دينيًّا وسياسيًّا على المدينة . بحكم كل هذه الظروف . فكان من أوائل أفعاله أن يهجر الشعب نظامه البرلمانى ليؤلف مجلسًا رياسيًّا . إذ لم يرضه فى هذا النظام أن الناس يجتمعون بميدان المدينة فيتعرضون فى هذا الهرج والمرج إلى إرهاب الحكام . وأغرب ما يمكن تصوره أن يقضى ساڤونارولا بأن السيد المسيح هو رئيس الدولة . وبهذا ألبست الدولة إسكيم الصفة الدينية ، وطبيعى أن يعمل الراهب الحاكم على تحقيقها كاملة فيأمر بمنع التفاريح والتباريح والرذائل ، وأن يتخلى الشباب والنساء عن ملابسهم المهفهفة ، وكل مظاهر الأناقة ، وحظر عليهم أعياد الكرنفال . وفُرضت عليهم فى هذا الاحتفال الأناشيد الدينية ، والمواكب الاحتفالية تقودها المقدسات المحمولة ، رموزًا للتبريك ، بدل الحشود المقلدة لوثنية الروم والرومان . وأوقف

التعامل المصرفى ، فهو داخل فى باب الرِّبا . وكان الشعب طوع بنان ساڤونارولا ، فأحرقت مخطوطات الكاتب المتفتح بوكاتشيو ، ولوحات الراهب بارتولوميو ، ولورنزودى كريدى ، وشعراء الكلاسيكية . ومجمل القول فى هذه الظاهرة هو القضاء على عصر النهضة والانفتاح (الرينسانس) . وما الذى ينتظر من إنسان تربى فى الدير ، ودرج على نظام الدير ، وانتقل إلى الدكتاتورية الكنسية وحكم بها ؟ فى أقلّه ، أن لا يسلم من الأخطاء فى الفكر وفى التنفيذ . وقد كان فإن الضغوط التى جدت ، وشعور العقلاء والمتزنين وهم أهل دين مهما قال فى ذلك الراهب الرهيب – بأن لا صلاح لنظام لا يتفق وسلوك الفلورنسيين ، وظهر ذلك فى صورة حزبيات معارضة ، لا اتفاق بينها على المطلوب من تغيير وتبديل . إنما يمكن القول بأن المجموع المتزن لا يريد أكثر من حكم « أوليجاركى » (حكم الجماعة) .

وانكشف خطر الحوادث الفلورنسية ، فى روما . هذا والبابا إسكندر السادس (رودريجوبورجيا) يتلقى إهانات الراهب له ، مثل قوله بأن هذا البابا أبعد ما يكون عن المسيحية ، وأقرب ما يكون إلى المسيخ الدجال ! .

حاول إسكندر بورجيا ببراعته ، ومعسول لسانه أن يجر رِجل الراهب إلى روما . ورفض ساڤونارولا أن يمتثل لأوامر الرئيس الدينى الأعلى . فأصدر البابا أمرًا بمنع الراهب من الخطابة الكنسية . ولا يملك ساڤونارولا سوى أن يمتثل . ولكن الراهب أرسل خطابًا

إلى غازى إيطاليا ، شارل الثامن ، ملك فرنسا ، ينعى عليه تقاعسه ، مع أن واجبه الأول هو إصلاح شئون الكنيسة .

تلمس البابا إسكندر بورجيا سبيل الإغراء ، فاقترح بلطف أن يرقى ساڤونارولا إلى رتبة الكاردينالية ، وهى فى الطقوس الدينية ترفعه إلى مرتبة الأمراء . وكان رد الراهب العاتى إنه يفضل التاج الأحمر « الدموى » للشهداء .

صعد إلى منبر (« الدومو » بمعنى الكاتدرائية) عام ١٤٩٦ – وأمر ذلك محظور عليه كما ذكرنا – وألقى خطابًا ناريًا فى عيد المرافع (العيد الذى يسبق الصيام عند الكاثوليك) وكله هجوم على البابا بورجيا وعلى إكليروس روما ، وعلى أسرة المديتشى بل على أهل فلورنسا (مما يدل على إحساسه بتحرك أعدائه ، وإدراكه لحرج مركزه فى فلورنسا ، وبخاصة لدى « الذوات » وأصحاب المال والتجارة بسبب ما أصابهم من توقف حال السوق) . وظهرت فى مجموعات الشباب من يقاطعون خطبه . وانتهى الأمر بأعضاء « السنيوريا » إلى إيقاف ساڤونارولا عن الخطابة فى « الدومو » وذلك لإحساسهم بضيق الشعب من هذا النزاع المستشرى بين الراهب وبين الكرسى الرسولى .

وكان ساڤونارولا قد أحس بكل ما يدور حوله من كلام ، وأدرك قرب النهاية . فاتخذ قرار عقد مؤتمر عام ، أرسل به كتبًا إلى جميع رؤساء الدول فى أوربا . وتلقط البابا بورجيا من شرطته خطابًا مرسلا من ساڤونارولا إلى ملك فرنسا شارل الثامن يدعوه إلى هذا المؤتمر.

أما كتابه للبابا رأسًا فقد كان يحذره فيه مما يضمره من شر ، وجاء فى آخر الكتاب : « وبهذا أكون قد فقدت الأمل فى نيافته . فاتجه إلى المسيح وحده ، فهو الذى يختار الضعفاء ليخزوا ويخذلوا أسود الأجيال المنحرفة ، وسيعينى على إثارة المؤتمر فى مواجهة العالم ليرى قداسة العمل الذى أقوم به ، وأتألم من جرائه . وسوف يعاقب فى عدله ، كل من يضطهدنى ويعرقل عملى . أما فيما يختص بذاتى ، فأنا لا أسعى نحو مجد دنيوى ، وإنما أتوق بكل حرارة إلى الموت . وأدعو قداستكم ألا تتأخروا طويلا ، إذ يجب أن ترعووا فى سبيل خلاصكم .

كان الراهب يتخذ أهبته للنهاية . ويبدى استعداده لتحكيم إلهى بواسطة اختراق النار الموقدة (أورديل) ، وهو تقليد من العصور الوسطى . وهنا جاءته الاستجابة إلى طلبه ، حين أقبل عليه راهب فرنسيسكانى من الجنوب الإيطالى ، وأبدى استعداده للدخول معه فى النار ليتعرف حقيقته كمرسل أوغير مرسل . واستجاب صديقه الراهب الدومنيكانى إلى مشاركته فى التحكيم (بالأورديل) . وأشعلت النيران فى (الجورة) ووقف الرهبان الثلاثة على استعداد لعبور النار ، واحتشد شعب فلورنسا على جوانب « البياضة » . غير أن صعوبات طرأت طوال اليوم حتى انفضّ الناس من حوله ، وعادوا إلى دورهم تحت مطر منهمر ، وفى نفوسهم غُصّة ، وقد ظهر لهم سافونارولا كرجل عادى ، فلا هو هنا ولا هو هناك ! .

واحتشد أعداء سافونارولا ، وحاصروا دير سان ماركو ، مقر

الرجل ، وقبضوا عليه واقتادوه إلى السجن ، حيث بقى حتى يوم إخراجه ليُشنق ثم يُلقى فى النار . ومهما طال أو قصر حبسه فليس ثَمّة اتفاق على الإجراءات التى تمت معه من التعذيب الرهيب ، وما الذى جرى نتيجة لهذا من اعترافات أو رفض . وترجمة ذلك أمام العارفين بالأمور هى شىء فظيع ، وقد يحدث تحت التعذيب أن يرتد المحكوم عليه ، والأغلب أن تكثر الأكاذيب حول ما جرى ، وما أشك فيه هو أنه لا قدرة إنسانية . ولا احتمالا لهذه الأعمال البربرية ، فالكلام أثناءها لا يتعدى الصراخ والعويل ، والتماس الرحمة ، ثم الإغماء ، والمفروض أن المُعَذَّب يبقى حيًّا حتى تجرى عليه تقاليد الإعدام شنقًا ثم حرقًا ، سواء اعترف المتهم أو أصر على التمسك بما يعتقده ، فهذا لا يقدم ولا يؤخر . وفى حالة سافونارولا اختلفت الأقوال من الارتداد إلى الإصرار .

ويقول المؤرخ البريطانى سيموندز بأن صورة كبيرة للواقعة موجودة بمتحف مدينة بيروجيا ، صادقة فى تصوير مبانى الميدان « البياصة » وقصر السنيوريا فى ناحية ، وأمامها « اللوجيا » مبنى الحرس . وأنا واثق شخصيًّا بأننى رأيت هذه الصورة ، أو نقلا عنها أيام إقامتى فى فلورنسا وزيارتى لإقليم توسكانيا والأقاليم المحيطة بها من الإدرياتيك حتى الشاطئ الغربى لإيطاليا . وقطعًا زرت متحف بيروجيا وشاهدت اللوحة : فى وسط الميدان كوم كثيف من حزمات الحطب ، وقطع الأخشاب ، وفى وسطها الصارى الذى يربط فيه المشنوق سواء أنزل من حبل الإعدام حيًّا أو ميتًا . وفى الصورة نتبين

قنطرة من السقالات تمتد من ركن قصر « السنيوريا » حتى تبلغ موضع الكوم . وفيما أذكر « طشاشًا » رأيت صورة ثلاث جثث الرهبان فى ملابس بيضاء . وفيما أذكر هناك عمود الدخان الأسود ، إشارة إلى بدء حريق رفيقيه قبله . وعندما عُقدت الأنشوطة حول رقبته ، صاح واحد من الجماهير قائلا : « هيّا يانبى ، لقد حل وقت قيامك بمعجزة » . وتقدم الرئيس الدينى القائم بالعملية ، وخلع عنهم إسكيم الرهبان وقال لكل منهم « أفصلك من الكنيسة المجاهدة والمنتصرة » . وأجاب الراهب المصلح بثبات رجل مشرف على الموت : « مجاهدة أى نعم ، أما منتصرة فلا ، وهذه ليست كنيستك » . وآخر كلماته : « إن السيد قد تعذب مثل عذابى ، ومن أجلى » ثم شُدّتْ الأنشوطة حول رقبته ، وفى اللحظة ابتدأ الحريق ، وقطعًا لم يمس اللهَبُ الرجل حيًّا . وقيل بأن صبيًّا رأى قلبه وسط الرماد الذى ذر فى نهر الآرنو . وما برحت موجودة البلاطة التى وضعت حيث سقطت الجثة المحترقة . ومن العادة فى زماننا أن ترى فوق هذه البلاطة باقات زهر فى اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو تذكارًا ليوم شنقه وإحراقه .

وبعد وفاته ، على التوِّ غدا قديسًا ، توزع محفوظات خطبه ، وغيرها . وصبت مداليات على شرفه . وصوره رافاييل ضمن علماء الكنيسة ، فى اللوحة المعلقة بحجرة « السنياتورا » بقصر الڤاتيكان . والأغرب أن تقدمت مقترحات من الكنيسة بضم اسمه إلى القديسين ، والكنيسة التى شنقته وأحرقت جثمانه هرطيقًا ، وفاسدًا ،

ولم يتم هذا التقديس ، إنما بعض كنائس الدومنيكان ، تجرى صلاة باسم « أوفيتشيودل سافونارولا » وانتشرت حول اسمه قصص خرافية كالمعتاد . ولكن الأهم من هذا أن الراهب الرهيب حيٌّ فى قلوب أهل فلورنسا .